الفصل الثامن

الأيام الأخيرة فى حياة الحجاج

- قتله للتابعى سعيد بن جُبَير رحمه الله
- قالوا عنه
- وفاته

قتله للتابعى سعيد بن جبير رحمه الله

لا يمكن الحديث عن أيام الحجاج الأخيرة دون أن يتم ذكر حادثة قتله للتابعى سعيد بن جبير حيث كان أخر من قتلهم الحجاج فى حياته وتوفى بعد قتله بفترة قصيرة قيل أنها أربعين يوماً ..

* * *

سعيد بن جُبير .. أبو عبد الله .. من موالى بنى أسد[1] .. إمام ومفسر وقارىء وفقيه وعالم من الأتقياء ومن أشهر التابعين .. كان فى مكة وقت أن قتل الحجاج عبد الله بن الزبير فأخذ منه البيعة لعبد الملك بن مروان بعدها ترك سعيد بن جبير مكة ورحل إلى العراق فلما تولى الحجاج حكم العراق أخذ منه البيعة مرة أخرى لعبد الملك بن مروان وأكرمه وجعله على الصلاة ثم ولاه القضاء فاعترض على ذلك كثير من أهل الكوفة وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربى فما كان من الحجاج إلا أن عزله وعين مكانه أبو بردة بن أبو موسى الأشعرى وأمره ألا يأخذ قراراً إلا باستشارة سعيد بن جبير وكان هذا تأكيداً من الحجاج على مكانة سعيد بن جبير الدينية وإيماناً بعلمه وفقهه ..

* * *

(١) أى ليس عربى فكل من أسلم من خارج جزيرة العرب يطلق عليه مَوْلى

على الرغم مما سبق فإن سعيد بن جبير كان رافضاً لأسلوب الحجاج فى تعامله مع الناس واستمراؤه سفك دماء الناس بأقل شبهة ولكنه ظل على بيعته لعبد الملك وقائماً بالأعمال التى يوليها إليه الحجاج ..

من ضمن تلك الأعمال أنه جعله على نفقات جند جيش عبد الرحمن بن الأشعث الذى خرج لقتال رُتبيل فلما خلعه ابن الأشعث خلعه سعيد بن جبير أيضاً وخرج عليه فيمن خرج وظل يحارب مع ابن الأشعث إلى أن استطاع الحجاج أن يهزمه فى دير الجماجم فهرب مع من هربوا خوفاً من بطش الحجاج فذهب فى البداية إلى أصبهان[1] واستقر بها لفترة حتى وصل خبره إلى الحجاج فأمر عامله على أصبهان بالقبض عليه ولكنه رفض تنفيذ الأمر وأرسل إلى سعيد بن جبير يخبره بما ورد إليه من الحجاج ونصحه بالخروج من البلدة لعدم رغبته فى القبض عليه فخرج بن جبير مرة أخرى ولجأ لأذربيجان وعاش فيها لفترة حتى كره البقاء هناك فخرج مرة ثالثة ولجأ بمكة .. خلال تلك التنقلات عاش سعيد بن جبير عشر سنوات كاملة هارباً من الحجاج ..

* * *

(١) مدينة فى إيران حالياً تبعد ٣٤٠ كيلو متر عن العاصمة طهران

خالد بن عبد الله القسرى كان والياً على مكة وقت وصول بن جبير إليهـا وقد بدأت الأخبار تتردد إليه أن سـعيد بن جبير موجود فى مكـة ووصلت تلك الأخبار أيضاً إلى الحجـاج الذى لم يفوت الفرصة وأرسل كتاباً إلى الوليد بن عبد الملك قال فيه :

(إن أهـل النفاق والشـقاق قـد لجئوا إلى مكة .. فـإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فيهم)

فكتـب الوليد إلى خالد بن عبد الله يطلب منه تسـليم من كان مع ابن الأشعث إلى الحجاج ليقضى فيهم وعلى الفور بدأ رجال خالد فى البحث عنهم فخشى أصحاب ابن جبير عليه ونصحوه بالهروب من مكة فقال لهم :

(قد والله فررت حتى استحييت من الله .. مم أفر ولا مفر من قدره .. سيجيئنى ما كتب الله لى)

لم يمر سوى أيام إلا وقد تم القبض على خمسة أشخاص :

عطاء بن أبى رباح

عمرو بن دينار

طلق بن حبيب

مجاهد بن جبر

سعيد بن جبير

و قد استأذن سعيد بن جبير فى أن يودع الحرم فتركوه يطوف بالبيت أسبوع وهو فى قيوده .. بعدها تم العفو عن عطاء وعمرو لأنهما من أهل مكة وتم إرسال الثلاثة الآخرين إلى الحجاج فتوفى طلق بن حبيب وهو فى الطريق وقضى الحجاج على مجاهد بالحبس وظل فيه حتى توفى الحجاج وتبقى سعيد بن جبير الذى جاءوا به إلى الحجاج فسأله :

(يا سعيد .. ألم أقدم مكة فأخذت منك البيعة ؟)

قال :

(بلى)

فقال الحجاج :

(أما قدمت الكوفة فأخذت منك البيعة ووليتك إمامة الصلاة ؟)

قال :

(بلى)

فقال الحجاج :

(ألم أولــك القضاء فَضج الناس وقالــوا لا يصلح للقضاء إلا عربى فاســتقضيت أبا بردة بن أبو موسى الأشعرى وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك ؟)

قال :

(بلى)

فقال الحجاج :

(أما جعلتك من سُمّارى[1] وكلهم من رؤوس العرب ؟)

قال :

(بلى)

فقال الحجاج :

(أمــا أعطيتك مائة ألف درهم تقرضهــا على أهل الحاجة ثم لم أسألك على شيء منها ؟)

(١) اسم مدينة

قال :

(بلى)[1]

و كان الحجاج يقول له هذا ليقيم عليه الحجة وقيل أنه كان متألماً لدخوله عليه مقيداً وظن كل من رأى هذا المشهد أنه سيخلى سبيله وربما قد حدث هذا لو أن سعيد بن جبير استطاع أن يستميل الحجاج إليه ولكن كما أوردنا سابقاً فشخصية مثل الحجاج لم يكن من السهل أبداً معرفة ما يدور بذهنه أو توقع تصرفاته وقد حاول الحجاج مراراً أن يقضى على الحسن البصرى لكن عصمه الله منه برحمته أما عن سعيد بن جبير رحمه الله فلم يأذن له الله بذلك .. ظل الحجاج يعاتبه حتى ما وجد شيئاً ليقوله له إلا أن قال :

(أصلح الله الأمير .. إنما أنا امرؤ من المسلمين .. يخطئ مرة ويصيب مرة)

فما أن قالها حتى انطلق وجه الحجاج ورجى أن يتخلص منه خاصة بعد أن أقام عليه الحُجَة فسأله :

(فما حملك على أن خرجت علىّ وخلعت بيعة أمير المؤمنين ؟)

(١) سيرة الحجاج بن يوسف الثقفى .. ماله وما عليه لأبى عبد الرحمن جمال بن محمد بن محمود – الباب الثالث – ص ١٣٦

فقال سعيد :

(إن ابن الأشعث أخذ منى البيعة على ذلك وعزم على)

فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شـديداً وانتفخ حتى سقط أحد طرفى ردائه عن منكبه وقال له :

(ويحـك .. تنكث بيعتين لأمـير المؤمنين وتفى بواحدة للحائك ابن الحائك ؟)

ثم صاح :

(يا حرسى .. اضرب عنقه)

فجاء إليه رجل اسمه مسـلم الأعور وقطع رأسـه وقيل ذبحه من الخلف وكان وجهه على الأرض وقيل أيضاً أن بعد قطع رأسـه سال منه دم كثير حتى ذُعر منه الحجاج وبعض الروايات ذكرت أن عقله أصابته لوثة خفيفة فجعل يقول :

(قيودنا .. قيودنا)

فلم يفهم الحراس ما يعنيـه فظنوا أنه يريد القيود التى فى قدم سعيد بن جبير فقاموا بقطع رجليه من الساقين واستخرجوا القيود..

* * *

مات سعيد بن جبير على يد الحجاج رغم أنه كان واحداً من أعلم أهل الأرض وقتها .. يقول الإمام أحمد بن حنبل :

(قتل سـعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه)

و على ما يبدو فإن قتل سعيد بن جبير كان كلمة النهاية فى حياة الحجاج لأن أغلب الروايات وأشـهرها يروى أن الحجاجٍ توفى بِعد قتله لسـعيد بن جبير بفترة قصيرة قيل أنها أربعين يوماً تقريباً .. وقيـل أنه أخر من قتل وقيل أنه قتـل بعده رجل واحد إسمه ماهان .. وروى أنه إذا نام كان يراه فى المنام آخذاً بمحامع ثوبه ويقول :

(يا عدو الله فيم قتلتنى ؟)

فيصحو الحجاج مذعوراً وهو يقول :

(ما لى ولسعيد وبن جبير ؟)

* * *

انظر للاستزادة :

(*) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٣٦٣ : ٣٧٤

(*) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ٩٦ : ٩٨

(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٤٨٧ : ٤٩١

(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٥٨٧/٤ – ص ٦٦٠

(*) سير أعلام النبلاء للذهبى – الجزء الرابع – ص ٣٢١ : ٣٤٢

قالوا عنه

كما أوردنا من قبل فالحجاج كان يرى بتكفير الخارج على الحاكم وكان يــرى فى بنى أميه أنهم أهل الخلافة والأحق بها وبالتالى فكل من خرج على عبد الملك بن مروان هو بالضرورة كافر يجب الإقتصاص منه أو يتم العفو عنه بعد أن يشهد على نفسه بالكفر وهى منة يمنها أمير المؤمنين على من يراه يستحق العفو ..

شــخصية تملك هذا الفكر كان من الطبيعى أن يكون لها كارهين كُثُر خاصة وأن ذلك اليقين الراســخ عند الحجاج وجد ما ينافيه فى صــدور الناس كون كثيراً منهم كان يرى فــى خلافة بنى أمية مثالاً للظلــم والجور خاصة من عمالهــم وولاتهم ولكن طبقاً لمنهج الحجاج فهــم أصبحوا ممنوعون من الإعتراض لأن من يعترض منهم فمصيره الخروج من الملة وإهدار دمه .. نستعرض هنا بعض أقوال من عايشوا الحجــاج وتعاملوا معــه .. بعضهم نصح باجتنابــه .. بعضهم نأى بنفسه عن الحكم عليه .. بعضهم ذمه .. وبعضهم كفره ..

* * *

يروى الحسن فيقول :

أن علىّ بن أبى طالب دعا يوماً على أهل الكوفة فقال :

(اللهم كما ائتمنتهم فخانونى .. ونصحت لهم فغشونى .. فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال .. يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية)

و عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علىّ بن أبى طالب أنه قال :

(الشاب الذيال أمير المصرين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ويقتل أشراف أهلها .. يشتد منه الفرق ويكثر منه الأرق ويسلطه الله على شيعته)

و عن حبيب بن أبى ثابت قال :

قال علىّ لرجل :

(لا مِتّ حتى تدرك فتى ثقيف)

فقال الناس :

(وما فتى ثقيف يا أمير المؤمنين ؟)

قال :

(ليقالن له يوم القيامة اكفنا زاوية من زوايا جهنم .. رجل يملك عشرين سنة أو بضعاً وعشرين سنة لا يدع لله معصية إلا ارتكبها .. حتى لم يبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها .. يقتل بمن أطاعه من عصاه)[1]

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء الثانى عشر – ص ١٦٨ : ١٦٩

و للحجاج أقاويل جريئة جداً تكاد تفضى إلى الكفر ومنها ما روى عنه أنه تلا وهو على منبره فى مدينة واسط :

{ وَهَبْ لِي مُلْكا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي }

ثم قال :

(والله إن كان سليمان لحسوداً)

* * *

و عن عن بُزَيع بن خالد الضبى قال :

سمعت الحجاج يخطب فقال فى خطبته :

(رسول أحدكم فى حاجته أكرم عليه أم خليفته فى أهله ؟)

فقلت فى نفسى :

(لله علـى أن لا أصلـى خلفـك صلاة أبـداً .. وإن وجـدت قوماً يجاهدونك لأجاهدنك معهم)

و إن صـح هذا عنه فظاهره كفـر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسـالة أو أراد أن الخليفة من بنى أمية أفضل من الرسول ﷺ والله أعلى وأعلم .. وتلك الرواية هى ما اعتمد عليه سـعيد ابن جبير

عليها رحمه الله في تكفيره حيث أن هناك مقولة منسوبة إليه يكفر بها الحجاج إعتماداً على تلك الرواية ..

* * *

بعض من عاصر الحجاج نصح الناس بالصبر ونصح أيضاً باجتنابه وترك أمره إلى الله مثل الحسن البصرى الذى أراد الحجاج قتله أكثر من مرة وبالرغم من هذا فإنه كان يرى بعدم الخروج عليه وقد أخرجه أصحاب ابن الأشعث معهم مكرهاً وكان دائماً ما يقول :

(إنما هو نقمة .. فلا نقابل نقمة الله بالسيف .. وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع)

* * *

وعن الزبير بن عدى قال :

أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما نلقى من الحجاج فقال :

(اصبروا .. فإنه لا يأتى عليكم عام أو زمان أو يوم إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم عز وجل)

وأكمل :

(سمعته من نبيكم ﷺ)

وقد قيل للحسن لاحقاً فى عهد عمر بن عبد العزيز :

إنك تقول الآخر شــر مــن الأول وهذا عمر بن عبــد العزيز بعد الحجاج)

فقال الحسن :

(لا بد للناس من تنفيسات)

أما الشعبى فقال :

(يأتى على الناس زمان يُصلّون فيه على الحجاج)

وقال أيضاً :

(والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج)

* * *

أما عن من ذموه فأكثر من أن يتم إحصاءهم فعلى سبيل المثال قال عمر بن عبد العزيز :

(لــو تخابثت الأمــم فجاءت كل أمة بخبيثهــا وجئنا بالحجاج لغلبناهم)

وقال عاصم بن أبى النجود :

(ما بقيت لله عز وجل حرمه إلا وقد ارتكبها الحجاج)

و يــروى أنهم جاءوا برجل من الخوارج إلى الوليد بن عبد الملك فقيل له :

(ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟)

فأثنى خيراً .. فقيل له :

(فعثمان ؟)

فأثنى خيراً .. فقيل له :

(فما تقول فى على ؟)

فأثنــى خيراً .. فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد فيثنى على كل بما يناسبه حتى قيل له :

(فما تقول فى عبد الملك بن مروان ؟)

فقال :

(الآن جــاءت المســألة .. ما أقول فى رجــل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه ؟)

و عن على بن مسلم الباهلى قال :

أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً فقال لها بعض أتباعه :

(يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟)

فقالت :

(إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه)

* * *

و كتب عمر بن عبد العزيز يوماً إلى عدى بن أرطاة يقول :

(بلغنى أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسننه .. فإنه كان يصلى الصلاة لغير وقتها .. ويأخذ الزكاة من غير حقها .. وكان لما سوى ذلك أضيع)

* * *

أما عن من كفروه فهناك عدة روايات ذكرت ذلك منها ما قيل لسعيد بن جبير لما سألوه :

(خرجت على الحجاج ؟)

قال :

(إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر)

– وقال سعيد بن جبير أيضاً :

(أليـس كافر بالله من زعم أن عبد الملـك أكرم على الله من محمد رسول الله ﷺ)

– وقال القاسم بن مخيمرة :

(كان الحجاج ينقض عرى الإسلام)

– وعن عاصم أنه قال :

(لم يبق لله حرمة إلا ارتكبها الحجاج بن يوسف)

– وقال الأعمش :

اختلفوا فى الحجاج فسألوا مجاهداً فقال :

(تسألون عن الشيخ الكافر)

– وقال الشعبى :

(الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله العظيم)

– وعن ابن طاووس عن أبيه قال :

(عجباً لإخواننا من أهل العراق .. يسمون الحجاج مؤمنا ! !)

– وقيــل أيضاً أنه أخبر بموت الحجاج مــراراً فلما تحقق من وفاته قال :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

* * *

و هناك من لم يحكم فيه وترك أمره إلى الله مثل محمد بن سيرين الذى ذكر عنده الحجاج فقال :

(مسكين أبو محمد .. إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه .. وإن يغفر لــه فهنيئاً له .. وإن يلق الله بقلب ســليم فهو خــير منا وقد أصاب الذنوب من هو خير منه)

فقيل له :

(ما القلب السليم ؟)

قال :

(١) الأنعام : ٤٥

(أن يعلم الله تعالى منه الحياء والإيمان .. وأن يعلم أن الله حق .. وأن الساعة حق قائمة .. وأن الله يبعث من فى القبور)

* * *

رواية أخرى فيها أن رجلاً قال لسفيان الثورى :

(أتشهد على الحجاج وعلى أبى مسلم الخراسانى أنهما فى النار؟)

قال :

(لا .. إن أقرّا بالتوحيد)

* * *

و عن أبو سليمان الدارانى أنه قال :

كان الحسن البصرى لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه حتى رآه فى منامه فقال له :

(أنت الحجاج ؟)

قال :

(أنا الحجاج)

قال :

(ما فعل الله بك ؟)

قال :

(قُتلت بكل قَتيل قتلته ثم عُزلت مع الموحدين)

قال : فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه والله أعلم ..

* * *

وفاته

بعــد أن أمر الحجاج بقتلِ ســعيد بن جبيرٍ بدأت حالته الصحية والنفســية بالتدهور ســريعاً وبدا ذلك واضحاً عليــه حتى إن بعض الناس قالت :

(رأيته وهو يأتى الجمعة وقد كاد يهلك من العلة)

و بدأت الأخبار تنتشر بسرعة فى أقاليم العراق حول أن الحجاج فى طريقــه للموت فســمع بحديثهم فقام إلى المنــبر فخطب بهم – وكانت أخر خطبه له فى الناس – وقال ضمن ما قال :

(إن طائفة من أهل الشــقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا : مــات الحجاج ومــات الحجاج .. فمَــهْ ؟![1] .. فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ .. والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا وما فيها .. وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه .. إبليس)

* * *

و يروى السرى بن يحيى فيقول :

مر الحجاج فى يوم جمعة فسمع استغاثة فقال :

(١) وما فى هذا ؟ ..

(ما هذا ؟)

فقيل :

(أهل السجون يقولون : قتلنا الحر)

فقال :

(قولوا لهم : اخسؤوا فيها ولا تكلمون)

يقول السرى :

(فمـا عاش بعد ذلك إلا أقل مـن جمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار)

* * *

بعدها مرض الحجاج فكان لا يسـتطيع الخـروج فأحضر منجماً وقال له :

(هل ترى فى علمك مَلِكاً يموت ؟)

قال :

(نعم .. ولست هو)

فقال :

(وكيف ذلك ؟)

قال المنجم :

(لأن الذى يموت اسمه كُلَيب)

فقال الحجاج :

(أنا هو والله .. بذلك كانت سمتنى أمى)

* * *

و قيل أنه مرض بسرطان المعدة وكان هذا سبب وفاته والله أعلم .. وقيل أنه مات بمرض غريب حيث امتلء بطنه بالديدان وما دل على ذلك أنه جيء له بالطبيب فأخذ قطعة من اللحم وربطها بخيط ثم سرحها فى حلقه وتركها ساعة ثم أخرجها فاذا هى وقد التصق بها دود كثير .. وقيل أن الله سلط عليه الزمهرير فى أخر أيامه فكان لا يشعر بالدفء أبداً مهما حاولوا معه .. قيل أنهم كانوا يشعلون الكوانين فيقربونها منه حتى تكاد تحرق جلده فلا يشعر بالحرارة ..

* * *

قام الحسن البصرى بزيارته فشكا إليه الحجاج من وجعه فقال له الحسن :

(قد كنت نهيتك ألا تتعرض إلى الصالحين فلججت)

فقال له :

(يا حسن .. لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عنى .. ولكنى أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحى ولا يطيل عذابى)[1]

* * *

وقد روى عنه أنه كان يقول فى أواخر أيامه :

(والله لئن كنت على ضلالة لبئس حين المفزع ولئن كنت على هدى لبئس حين المجزع)

ثم قال ليزيد بن أبى مسلم :

(إذا مت فلا تكتم أمرى .. ومر من ينادى بموتى وأخرجنى من باب الزابى .. فإذا فرغت من دفنى فأجر الماء على قبرى ثم أثره بالبقر وليكن الحفر عميقاً)

و كان كلما سمع بأحدهم يقول أنه لا ريب مصيره إلى النار كان ينشأ شعراً فيقول :

(١) الوافى بالوفيات للصفدى – الجزء الحادى عشر – ص ٢٣٨

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا .. بأننى رجل من ساكنى النار

أيحلفــون علــى عمياء ويحهم .. مــا علمهم بعظيــم العفو غفار

فلما أخبروا الحسن بما أنشأه قال :

(بالله إن نجا لينجون بهما)

* * *

و مات الحجاج قبل تسعة أيام من نهاية رمضان[1] وعن عمر ناهز أربعة وخمسون عاماً وقد ترك خلفه وصية قال فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف .. أنه يشــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شــريك لــه وأن محمداً عبده ورســوله .. وأنه لا يعــرف إلا طاعة الوليد بن عبــد الملك .. عليها يحيى .. وعليها يموت .. وعليها يبعث)

و قد روى أن أخر كلماته قبل أن تخرج روحه إلى بارئها أنه قال :

(اللهم اغفر لى فان الناس يزعمون انك لا تفعل)

و بالرغــم من أن الحجاج من المنطقى أن يحوز ثروة عظيمة بحكم موقعــه القيــادى وكثرة فتوحات المســلمين فى عهــده إلا أن الناس

(١) قيل قبل نهايته بأربع أيام وقيل فى شوال عام خمسة وتسعين هجرياً

عندما تتبعت ميراثه بعد وفاته لم يجدوا عنده إلا ثلاثمائة درهم .. ومصحفاً .. وسيفاً .. وسرجاً .. ورحلاً .. ومائة درع موقوفة لوجه الله لاستخدامها فى الغزو[1]

يقول الأصمعى :

(ما كان أعجب حال الحجاج .. ما ترك إلا ثلاثمائة درهم)

* * *

لم يتم معرفة خبر وفاة الحجاج إلا عندما أشرفت جارية على الناس وهى تبكى قائله :

(ألا إن مُطعم الطعام .. ومُيتم الأيتام .. ومُرمل النساء .. ومُفلق الهام .. وسيد أهل الشام قد مات)

ثم أنشأت تقول :

(اليوم يرحمنا من كان يبغضنا .. واليوم يأمننا من كان يخشانا)

فأخذ منها الناس الخبر وطافوا به فى المدن حتى يعلم الناس أمر وفاته فوصل الخبر إلى الحسن البصرى فسجد شكراً لله وقال :

(اللهم إنك قد أمته فأمت عنا سنته)

(١) وقيل تسمعائة درع قسمها إلى ستمائة لأهل العراق وثلاثمائة للترك

يقول حماد بن أبى سليمان :

(لما أخبرت إبراهيم النخعى بموت الحجاج بكى من الفرح)

أما عمر بن عبد العزيز لما وصله الخبر قال :

(ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدى إياه على حبه القرآن .. وإعطائه أهله عليه .. وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل)

* * *

أما عن أهل السجون فقد قال لهم زياد بن الربيع بن الحارث أن الحجاج على الأغلب سيموت من مرضه هذا وأنه لن يمر يوم كذا وكذا إلا وهو ميت فلم ينم أهل السجن فرحاً وجلسوا ينتظرون سماع نعى الحجاج ..

و قد أحصوا عدد من قتلهم الحجاج صبراً[1] فوجدوهم مائة وعشرين الف نفس .. وأحصوا من أسرهم الحجاج فوجدوهم واحد وثمانين ألف أسير وقد أطلقهم سليمان بن عبد الملك بعد توليه الخلافة فى يوم واحد .. وأحصوا من أمر بهم الحجاج إلى السجن فوجدوهم ثمانون ألف سجين منهم ثلاثون ألف امرأة وكان منهم

(١) أى من قتلوا بعيداً عن ساحات المعارك

ثلاثة وثلاثون الف لم تجب عليهم أحكام بعد ..

* * *

انظر للاستزادة :

(*) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١١٧ : ١٣٩
(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٥٨١/٤ : ٥٨٦/٤ – ص ٦٦١ : ٦٦٢

* * *

يقول ابن عبد ربه الأندلسى عن الحجاج فى كتابه العقد الفريد :

(وكانت فيه شهامة عظيمة .. وفى سيفه رهق .. وكان كثير قتل النفوس التى حرمها الله بأدنى شبهة .. وكان يغضب غضب الملوك .. وكان فيما يزعم يتشبه بزياد بن أبيه وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ولا سواء ولا قريب)

* * *

و يقول عنه ابن كثير فى البداية والنهاية :

(وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم والافتيات عليهم)

و يقول أيضاً :

(وقـد كان ناصبياً يبغض علياً وشـيعته فى هوى آل مروان بنى أمية .. وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة)

و يكمل ابن كثير فيقول :

(وقد روى عنه ألفاظ بشـعة شـنيعة ظاهرها الكفـر كما قدمنا .. فـإن كان قد تـاب منها وأقلع عنها وإلا فهو بـاق فى عهدتها .. ولكن قد يخشـى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه فإن الشـيعة كانـوا يبغضونه جداً لوجوه وربما حرفوا عليـه بعض الكلم وزادوا فيما يحكونه عنه بشـاعات وشـناعات .. وقد روينـا عنه أنه كان يتدين بترك المُسـكر وكان يكثر تـلاوة القرآن ويتجنب المحارم ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج وإن كان متسرعاً فى سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسـاترها وخفيات الصدور وضمائرها)

و قال أيضاً :

(الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبـة عند الله عز وجل .. وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد وكان فيـه سماحة بإعطاء المال لأهل القـرآن فكان يعطى على القرآن

كثيراً ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلاثمائة درهم والله أعلم)

و فى هذا فقد أنصف ابن كثير الحجاج فذكر عيوبه ومزاياه ولكن أعتقـد أن أوقع ما قيل فى الحجـاج وذكر حقيقته هو ما كتبه الإمام الذهبى عنه حيث قال :

(كان ظلومـاً .. جبـاراً .. ناصبياً .. خبيثاً .. سـفاكاً للدماء .. وكان ذا شـجاعة .. وإقدام .. ومكر .. ودهاء .. وفصاحة .. وبلاغة .. وتعظيم للقرآن)

ثم أكمل :

(فنسبه ولا نحبه .. بل نبغضه فى الله .. فإن ذلك من أوثق عُرى الإيمان .. وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه .. وأمره إلى الله .. وله توحيد فى الجملة .. ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء)[1]

* * *

انتهـت بهـذا قصة كُليـب .. أبو محمد .. الحجاج بن يوسـف الثقفى بما تحويه من تناقضات يكاد يعجز القلم عن كتابتها .. فعلى حسـب ما وصلنـى لا أعتقد أن هناك رجلاً واحـداً فى التاريخ جمع بين كل تلك الأضداد فى شخصه .. فهو الظلوم .. الجبار .. الخبيث

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى – الجزء الرابع – ص ٣٤٣

.. سفاك الدماء .. وهو اللجوج الحسود الحقود على حسب ما ذكر عيوبه بنفسه .. وهو أيضاً الحافظ للقرآن .. المجازى عليه .. المعظم له .. وهو الفاتح الذى ساهم فى نشر الدين فى المشرق كله تقريباً وبسببه أسلم ملايين البشر .. وهو الشجاع .. المقدام .. صاحب المكر والدهاء ..

هو الذى أصابت قذائفه البيت الحرام .. وهو الذى قتل وصلب عبد الله بن الزبير رضى الله عنه .. وهو الذى أهان أهل المدينة وآذى الصحابة الكرام .. وهو الذى قتل التابعين واستمرئ قتل عشرات الآلاف دون سبب فى كثير من الأحيان .. وهو أيضاً الذى وصلت فتوحاته إلى داخل حدود الصين .. ولم يعرف عنه أبداً أنه استولى على درهم واحد من المال العام بل وأثرى بأسلوبه الإدارى الدولة وطورها ونظم أمورها واقر أمناً لم تنعم بمثله الدولة الإسلامية إلا فى عهده ..

الحجاج شخصية محيرة بشكل لا يمكن تصديقه ..

محيرة حتى بالنسبة لكاتب هذه السطور ..

* * *